# مجتمع المغول القبلي

# مساكنهم ومأكلهم ومشربهم

أ.م.د. رغد عبد الكريم النجار *

تأريخ التقديم: ٢٠١٢/٤/٢٢ تأريخ القبول: ٢٠١٢/٦/١٩

**المقدمة:**

تناولت الكثير من الدراسات التأريخية حروب المغول وتوسعاتهم والكيانات السياسية التي أقاموها شرقاً وغرباً وصراعات الأسر الحاكمة المغولية على السلطة الخانية، وعلاقاتهم السياسية الخارجية،غير ان الجوانب الاجتماعية لطبيعة المجتمع المغولي وطرائق مسكنهم ومأكلهم ومشربهم وجوانب اجتماعية أخرى، قليل ما تناولتها دراسات استوفتها.

وهذه الدراسة هدفها تغطية جزء من هذا الجانب كما مؤشر في عنوان البحث.

وقد تضمنت الدراسة العناوين الآتية:

أولاً: المجتمع المغولي القبلي.

ثانيا: المساكن المغولية.

ثالثا: مأكل المغول ومشربهم.

**أولاً: الطبيعة القبلية للمجتمع المغولي**

تشير المعلومات المتوافرة لدينا – عن التاريخ المبكر للمغول – ان النظام القبلي هو الذي كان سائدا في مجتمعاتهم. إذ الجماعات القبلية المتناثرة والمنتشرة في أغلب أراضي منغوليا، التي يربو عددها الى تسع وثلاثين قبيلة(١)، ولعلّ اشهرها قبائل التتار والكرايت

* قسم التاريخ/كلية الآداب/ جامعة الموصل .

(١) بارتولد، و: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة احمد سعيد السلمان، مكتبة الانجلو المصرية، ص٣٤.

والمركيت والمنغول والنايمان وقيات[١]، وجميعهم يطلق عليهم تسمية (المغول)[٢] أما طبيعة اراضي المغول فتتصف بأنها سهوب واسعة تتخللها الجبال والهضاب، وعدد قليل من الانهار والبحيرات، مناخها قاري بالغ القساوة اذ تنخفض درجة الحرارة الى مادون الـ((٢٠ درجة مئوية)) تحت الصفر في بعض ايام فصل الشتاء، وترتفع درجة الحرارة فيه الـ ((٦٠ درجة مئوية)) في فصل الصيف[٣]، هكذا مناخ لم يعط الفرصة لشعوب هذه البلاد ليسود فيها التجمعات المدنية مدناً وقرى وأرياف، وهذا ما يؤكده الرحالة الايطالي ماركوبولو الذي اضطلع عن كثب طبيعة حياة هذا المجتمع في رحلته التي اجتازت هذه البلاد وهو في طريقه الى عاصمة الامبراطورية المغولية الجديدة (بكين) التي كان قد اتخذها قوبلاي خان (٦٥٨-٦٩٣هـ/١٢٦٠-١٢٩٠م) لتكون بديلا عن قراقورم.

ورحلة ماركوبولو كانت بحدود سنة (٦٧٣هـ/١٢٧٥م) فيقول عن موطن قبيلة المركيت التي مضاربها تنتشر حول بحيرة بيكال مانصه (ان البرد في الشتاء من فرط

(١) للاطلاع على الخارطة القبلية للمغول ومناطق انتشارهم ينظر: النجار، رغد عبد الكريم احمد: صراع الاسرة الملكية الحاكمة على السلطة في امبراطورية المغول، أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى عمادة كلية الآداب جامعة الموصل ٢٠٠٩م، ص١٧-٢٠. فلاديمير ستوف. ب. ي: حياة جنكيز خان الادارية والسياسية والعسكرية، ترجمة سعد الغامدي، الرياض، ١٩٨٣م ص ٢٠-٢١.

(٢) أراد تيموجين (جنكيزخان) ان يرفع من شأن قبيلته المغول على باقي قبائل منغوليا فقرر بموجب المؤتمر العام الذي عقد ٦٠٣هـ/١٢٠٦م وبحضور جميع زعماء قبائل منغوليا تعميم تسمية المغول على كل هذه القبائل، وأخذت هذه القبائل تتشرف بهذه التسمية بحكم تيموجين لها. بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه امين ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٣٨٢. رانيسمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، للمطبوعات، بيروت/١٩٦٩م، ج٣، ص٤١٦. الامين، حسن: الغزو المغولي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٧٦، ص٣٠-٣١. القزاز، محمد صالح داود: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء، النجف، ١٩٧٠م ص٢٢. قداوي، علاء محمود:المغول في الموصل والجزيرة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى عمادة كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٥م، ص٤٩.

(٣) ابو العينين، حسن سيد احمد: جغرافية العالم الاقليمية اسيا الموسمية وعالم المحيط الهادي، دار النهضة العربية، ط٥، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٦٦، ٤٩٠. قداوي: المغول في الموصل والجزيرة، ص٣٥.

الشدة بحيث لايستطيع طير ولابهيمة انعام المكث فيه.)[١] وحالة التطرف في هكذا مناخ تجعل من الصعوبة بمكان على اي مجتع ان يكون في حالة حل وترحال دائم متقيا شر البرد نحو المناطق الاكثر دفئا في الشتاء والاكثر اعتدالا في الصيف[٢]، ولهذا كان نظام البداوة هو الاصلح لهم، لذا كان المغول الاكثر بداوة من اية شعوب اخرى بامتياز.

ومن يدرس تاريخ المغول ابتداء من العهود التي سبقت تكوين امبراطوريتهم يجد أنهم قليلي السكان يتوزعون متنقلين في المناطق الفسيحة من أواسط مجرى نهر أمور بين خينغان الصغرى والمجرى الأسفل لنهر سونغاري امتدادا الى الضفة الجنوبية للمجرى الأسفل لنهر ارغون وحول بحيرة بيكال مع أعداد قليلة من القبائل الممتدة في بعض المناطق من صحراء جوبي[٣]، وهذه المناطق جميعها يطلق عليها في وقتنا الحاضر جمهورية منغوليا الشعبية والتي تقع على الحدود الشمالية الغربية من جمهورية الصين،والى الجبهة الشرقية من اقليم التركستان[٤].

بقى المغول على بداوتهم حتى بعد تكوين امبراطوريتهم على عهد جنكيز خان وأنسياب الموارد الهائلة على بلادهم والتي جناها المغول من حروبهم وتوسعاتهم شرقاً وغرباً وكان لهذا التمسك بنظامهم القبلي الأثر الواضح في بقاء دولتهم قوية ولزمن طويل، ومن يقرأ بنود (الياسا أو اليساق) الذي هو بمثابة دستور المغول سيجد فيه من البنود الشديدة القسوة، والتي تفرض العقاب الصارم على كل من يخرج عن القيم البدوية التي كان قد ثبتها جنكيز خان في دستوره على شعبه – ولا يتسع المقام لذكرها–

(١) رحلات ماركوبولو،ترجمها الى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م ص١١٣.

(٢) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ص١٠٥.

(٣) كيتشانوف، ي: حياة تيموتشجين (جنكيزخان) الذي فكر في السيطرة على العالم، ترجمة طلحة الطيب، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ٢٠٠٥م، ص١٥.

(٤) فلاديمير، ستوف: حياة جنكيز خان، ص١٥.

[١]، تلك القوانين التي بقي معظم خانات المغول العظام محافظين على تبطيقها لعقود زمنية عديدة، وكان من يخرج عنها او يحيد يتهم بعدم الالتزام بها دستوراً لحياته تنزل به عقوبة قد تصل الى الموت.

وكان اصحاب النفوذ يرمون بمن ينافسهم على مراكز النفوذ بأن يجدوا لهم ما يشير الى مخالفتهم (للياسا) ليوقعوا بهم، وهذا حدث عندما اسلم الايلخان تكودار واطلق على نفسه لقب أحمد، فأتهمه أعداؤه من أمراء المغول بالخروج عن (الياسا) وثاروا عليه وقتلوه واحلوا محله ابن اخيه (ارغون سنة٦٠٣هـ/١٢٨٥م)[٢].

وقوانين (الياسا) كانت لها الاولوية ضمن اهتمامات جنكيز خان تجاه شعبه ولهذا كان يولي الاهمية الكبيرة في الحفاظ على تطبيق ما جاء فيها ولا يتوانى في انزال عقوبة الاعدام على كل من يتهاون في تطبيقها[٣]، وقد اوكل مهمة مراقبة تطبيقها لأبنه الثاني جغتاي[٤]، الذي عرف عنه الشدة والقسوة على كل من كان يخالف تطبيقها، وقد عانى المسلمون الذين خضعت بلادهم لحكمه في بلاد ما وراء النهر وخراسان الكثير من

(١) عن الياسا وماتضمنته من بنود ينظر: ابن فضل الله العمري، شهاب الدين احمد بن يحيى: مسالك الابصار في ممالك الامصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، ٢٠١٢م، ج٣، ص٩٦-٩٩. المقرنري، تقي الدين ابو العباس احمد: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية، القاهرة، ج٢، ص٢٢٠-٢٢١.

Poliak: the enfluence of chingz_khan yasa, open the general of the mamluk state" Bulletin of the school of orientaland African studies university of London, 1942, vol. 10, part h, p 862-873-874.

(٢) ابن ايبك، ابو بكر بن عبدالله الدويداري: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق اولرخ هارمان، منشورات المعهد الالماني، القاهرة، ١٩٧١م، ج٨، ص٢٥٢، ٢٦٤. الجاف، حسن: الوجيز في تاريخ ايران، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٢٨٩-٢٩٩. النجار: صراع الاسرة الملكية، ص١٧٧.

(٣) ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ الدول السرياني، منشورات مجلة المشرق اللبنانية، بيروت ١٩٥٦م ص٤٢٠-٤٢١. شبولر، بارتولد: العالم الاسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد عيسى، دار احسان، دمشق، ١٩٨٢م، ص٢٧-٢٨. حسن، نزار: مدى تطبيق القوانين المغولية في السلطة المملوكية، مجلة دراسات تاريخية، العدد٩٣، سنة ٢٠٠٦م، ص٨٥-٨٦.

A.K.S. lambten: Iran in the encyclopaedia of islam, vol. 1, London, 1965, p,31.

(٤) ابن العبري: تاريخ الزمان، دار الشروق، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٢٣٧.

الحيف والقهر بسبب تطبيق هذه القوانين اذا كانت (الياسا) تحرم الذبح على الطريقة الاسلامية او الاغتسال في المياه الجارية، فاضطر كثير من المسلمين ان يأكلوا لحما كانوا يعدونه ضربا من لحم الميتة[١] و(الياسا) عندما حرمت الذبح على الطريقة الاسلامية كان ذلك يرجع الى انهم كانوا يعتقدون ان الروح تكمن في الدم، وان أرهق دم الحيوان وساح على الارض ونشف، تعد روحه غائصة في الارض وفاسدة، ولهذا يتحمل من يذبح الحيوان بهذه الطريقة العقاب بالموت، لأنّه اعاق انسياح الروح الى السماء، ولهذا لم يعد بوسع المسلم في خراسان أن يذبح الحيوان جهرة في حياة الخان جغتاي[٢].

ويبدو ان القصد من وضع بند تحريم في (الياسا) هو الزام المجتمع المغولي بعدم اهدار أيّ قيمة غذائية يمكن الاستفادة من الحيوان عند ذبحه، فبيئة منغوليا كان امر الحصول على الغذاء فيها غير ميسور ولهذا كان المغولي لا يتلف شيئا من جسد الحيوان المراد أكله بما فيه دمه ولذلك فان طريقة ذبحهم للحيوان حسب ما جاء في (الياسا) تكون عن طريق عمل فتحة في الصدر يتم من خلالها ادخال اليد إلى قلب الحيوان فيعصر حتى ينفق[٣].

وعلى الرغم من اتساع امبراطورية المغول على عهد (جنكيز خان) وكثرة الموارد التي انهالت عليهم حافظ المغول في منغوليا على تقاليدهم البدوية ولم يحيدوا عنها، ولهذا يجب ان لا يفاجأ من يبحث عن الجوانب الحضارية العمرانية للمجتمع المغولي في منغوليا بأن لا يجد اي مظهر عمراني فيها على عهد جنكيز خان، فلم يكن المغول

(١) الجويني، عطا ملك: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، ترجمه عن الفارسية محمد التونجي،دار الملاح للطباعة والنشر،١٩٨٥م، م١، ص٢٤٨. الهمذاني، رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان من اوكتاي قان الى تيمور قان) ترجمه عن الفارسية فؤاد عبد المعطي الصياد، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥م، ص٧٣-٧٤. البانكتي، ابو سليمان داود بن ابي فضل: روضة اولي الالباب في معرفة التواريخ والانساب المشهور بتاريخ البانكتي، ترجمه عن الفارسية محمد عبد الكريم علي، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٧م، ص٤٢٤.

(٢) الجويني: تاريخ فاتح العالم، م١، ص٢٤٨.

(٣) الصلابي، علي محمد: دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٩م، ص٣٥.

راغبين في الاستقرار وبناء المدن بل أخذت جموعهم تضرب في ارض منغوليا، كما لم تكن لجنكيزخان عاصمة له بل معسكرات غير ثابتة من الخيام تكون مقر لحكمه ترفع عندما تنتفي الحاجة إليها لتقام في مكان آخر.

وعانى المجتمع المغولي كثيراً بين التمسك بقيمه القبلية البدوية وقوانين (الياسا) وبين القيم الحضارية لشعوب البلدان التي احتلوها وتأثر الكثير منهم بها[١] وسبب ذلك صراعاً عنيفاً بين المدافعين عن البداوة والياسا وبين المتأثرين بقيم الشعوب المتغلبين عليهم.

وهذه الصورة نجدها اكثر وضوحا في خانية دولة مغول الجغتاي في آسيا الوسطى، التي أقامها جغتاي بموجب تقسيمات والده جنكيزخان الذي قسم إمبراطوريته بين ابناءه الاربعة (اوكتاي) الذي كان نصيبه ارض منغوليا و(جوجي) بلاد القفجاق و(تولوي) بلاد قيالق غلي الواقعة في اقصى بلاد الشفشين، و(بلغار وجغتاي) بلاد ما وراء النهر والتركستان[٢]، وكان سبب انهيار هذه الدولة يرجع لتخلي خاناتها الأواخر عن القيم البدوية المغولية، فقد اتهمت قبائل منغوليا الخان الجغتائي ترماشيرين (٧٢٦-٧٣٤هـ/١٣٢٦-١٣٣٣م) بتخليه عن شريعة جنكيز خان (الياسا) [٣] بابطال (يوم الطوى) وهو اليوم الذي يجتمع فيه ابناء الاسرة الحاكمة المغولية قادمين من كل انحاء البلاد، في مكان يخصص مسبقاً ليقرروا فيه ان كان الخان ملتزما بشريعة جنكيز خان ام لا، كما انكروا عليه أيضا اقامته أربع سنين في بلاد ماوراء النهر دون ان يزور موطنه منغوليا

(١) للاطلاع على بعض مظاهر هذا التأثر بالشعوب التي احتلوها ينظر الجويني:تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، م١، ص.

(٢) ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار، ج٣، ص١٠١-١٠٢. القلقشندي: صبح الاعشى في صناعة الانشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ج٤ ص٣٠٨-٣٠٩. العريني، السيد الباز: المغول، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧م، ص١٨٥. شاكر، محمود: التاريخ الاسلامي، المكتبة الاسلامية، ٢٠٠٠م، ج٣، ص١٥٣.

(٣) حسين، جاسم مهاوي:تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام،رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى عمادة كلية الاداب جامعة بغداد، ١٩٧٦م، ص٤٠. يكوبوفسكي، أ. يو: تيمورلنك وصف موجز لسيرة حياته، ترجمه عن الروسية صلاح الدين عثمان، مجلة دراسات، الجامعة الاردنية، م١٥، العدد٧، ١٩٨٨م، ص١٠٥.

التي كان يقتضي ان يزورها على الاقل في السنة مرة، وهذا مالم يفعله (ترماشيرين)[١]، ممّا جعله في صراع مع هذه القبائل، ودفع حياته ثمنا لميله الحضري وذلك سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٣م)[٢]. فولد مقتله صراعاً دمويا بين المناصرين من اتباعه من المغول الذين كانوا قد استوطنوا في المناطق الحضرية في بلاد ما وراء النهر، والذين أطلق المغول البدو عليهم اسم (قراونس) اي الهجناء غير الاصلاء في حين اطلق المغول القراونس على المغول البدو اسم (الجته) وتعني اللصوص[٣] اي ان الصراع غدا بين (القراونس والجته)، وكانت الحروب بينهما سجالاً، وقلما استطاع خان ان يثبت في مركزه طويلا حتى غدت البلاد في فوضى عارمة[٤] لتنتهي باستقلال كل امير في منطقته[٥] ولتنهار الدولة بسبب ذلك على يد تيمورلنك سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م[٦].

(١) ابن بطوطة، ابو عبدالله محمد بن ابراهيم اللواتي: رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة الناظر في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١م، ص٣٨٧.

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٣٥٩. بارتولد: تاريخ الترك، ص٢٠٩. عبد الحليم، رجب محمد: انتشار الاسلام بين المغول، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٣٧٨-٣٨٩.
Saunders: A history of the Mongol Conquest, London,1977, p.172.

(٣) يكوبوفسكي: تيمورلنك، ص١٠٥. حسين: تاريخ الغزو التيموري، ص٣٨.
Doghlat, Miraza Muhammed: Tarikhi Rashidi, Tr. for Persian By E. D. Ross "London, Carzon Press,1973", P.52.
Hookham, H: Tamburlaine the Conqueror "London, Hooder and Stoughto, 1967" P.39.

(٤) عن هذه الفوضى التي ولدها هذا الصراع ينظر التفاصيل. فامبري، ارمينيوس: تاريخ بخارى، ترجمة احمد محمود الساداتي، شركة الاعلان الشرقية، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢٠٣. يكوبوفسكي: تيمورلنك ص١٠٩. بارتولد: تاريخ الترك، ص٢٠٩-٢١١. حسين: تاريخ الغزو التيموري، ص٣٨.

(٥) عن الدويلات التي ظهرت في اعقاب تجزئة خانية مغول الجغتاي ينظر. حسين: تاريخ الغزو التيموري ص٤٢-٤٣.

(٦) ابن عرب شاه، شهاب الدين احمد بن محمد الدمشقي: عجائب المقدور في اخبار تيمور،منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق٢٠٠٠م، ص٣٥. حسين: تاريخ الغزو التيموري، ص٥٣-٥٤.
Al yazdi, Sherefedden Ali: Zefer Name, Tr to English By Darby, London, 1733, Vol,1, P,42-43.

**ثانيا: المساكن المغولية**

فرضت الظروف المناخية القاسية سطوتها على المغول في موطنهم منغوليا ومنحتهم القدرة على التكيف ضمن نمط معاشي يتلائم مع طبيعة حياتهم القائمة على الحل والترحال طلبا للماء والكلأ وهرباً نحو المناطق التي تكون اقل قسوة في ظروفها المناخية، فالمغولي كان يتنقل مع حيواناته في الصيف إلى الشمال حيث الجبال والوديان والمراعي هربا من حرارة صحراء جوبي في الجنوب، وفي الشتاء تنخفض درجات الحرارة دون الصفر المئوي، فيبدأ المغولي برحلة العودة إلى الجنوب نحو الواحات ومناطق السهوب ليقي نفسه وماشيته برد سيبيريا القارس[١].

هذا النمط من الحياة يتطلب من المغولي ان يصطحب معه في ترحاله منزلا محمولا يسهل حمله وتجهيزه بالاقامة فيه اينما ذهب ويلبي في الوقت نفسه حاجيات ما يجب ان يكون عليه المسكن وان كان بأبسط صورة.

هذا المسكن هو عبارة عن خيمة،وقد وصف لنا ماركوبولو الذي شاهد الكثير منها في رحلته في بلاد المغول، فيقول (وخيامهم مصنوعة من قضبان مغطات باللباد ونظرا لأنها مستديرة تماما وتوضع مع بعضها البعض على صورة لطيفة، فانهم يستطيعون جمعها في حزمة واحدة ويحولونها ربطات،يحملونها معهم اثناء هجراتهم...) [٢] كما وصف لنا الرحالة الأوربي (بل) مشاهد اكثر تفصيلا عن ما جاء لدى ماركوبولو فيقول عن مشاهدته قبيلة مغولية مانصه (اقام التتار خيامهم على امتداد ضفة النهر،وهي خيام ذات شكل مخروطي وهناك عدة اعمدة طويلة ترفع مائلة احداها نحو الاخر، وهي تثبت في القمة في شيء يشبه الطوق الذي يشكل محيط له فتحة لطرد الدخان أو ادخال النور، وقد وضعت عبر القضبان بعض العصي الصغيرة التي يتراوح طول الواحدة منها بين أربعة أقدام أو ستة، وهي مثبتة على العمدان بسيور من جلد. ويغطي هذا الاطار بقطع من اللباد المصنوع من الصوف الخشن والشعر، وتؤلف هذه الخيام مأوى أحسن من اي نوع

(١) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ص١٠٥.

(٢) رحلات ماركوبولو، ص١٠٥.

آخر، كما انها مصممة بحيث تنصب وتفك وتطوى وتحزم بغاية اليسر والسرعة، وهي من الخفة بحيث يحمل بعير خمساً أو ستاً منها(١).

وكان المغول يضربون خيامهم في مناطق الاعشاب التي تكفل لهم الحصول على قوتهم في يسر وسهولة حتى اذا وجدوا الأرض قد جدبت طووا خيامهم وحملوها)(٢).
والمصادر التي بين أيدينا تشير إلى أن المغول كانوا يستخدمون العربات التي تجرها الحيوانات الى جانب الثيران والجمال والخيول التي كانت تحمل على اظهرها خيامهم وأمتعتهم(٣).

وأكثر المغول من استعمال العربات ذات الأربع عجلات ولهم أيضا عربات من عجلتين وهي مظللة بسقف خشبي عليها اللباد الأسود وتحمي من يستقلونها مطر الشتاء الغزير(٤).

وقد طور المغول هذه العربات بمرور الوقت ليقيموا فوقها خيامهم الثابتة لاسيما بعد ان اتسعت المسافات في تنقلاتهم فكانت عربات خاناتهم يشترك في جرها اثنا عشر ثور أو أكثر، وأحيانا تكون صغيرة ذات عجلتين يجرها ثور واحد(٥).

هذه المساكن المقامة على عربات كانت تسمى الواحدة منها (الخرقة) وبمرور الوقت غدت ظاهرة مساكن العربات هي السائدة على الأغلب في مجتمعات المغول وبدأنا نشهد مدنا ومحلات كاملة مقامة على عربات في عهود الخانات الذين اعقبوا جنكيزخان. ففي بلاد المغول القفجاق على عهد باتو الذي خلف والده جوجي على منصب الخانية سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) شاهد وليم روبروك (الذي كان سفيراً لملك فرنسا لويس التاسع في أثناء رحلته إلى عاصمة الامبراطورية المغولية قراقورم لمقابلة الخان منكو واستغرقت

(١) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ص١٠٦، الهامش رقم (٢) نقلا عن الرحالة بل.
(٢) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ص١٠٥.
(٣) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ص١٠٥. كيتشانوف: حياة تيموتشجين، ص١٣.
(٤) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ص١٠٥. هوخام، هيلدا: تاريخ الصين، منشورات المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٢٣.
(٥) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٣٤٣-٣٤٨.

رحلته ثلاث سنوات (٦٥١-٦٥٣هـ/١٢٥٣-١٢٥٥م) الكثير من العربات، واصفاً عربات الامراء بأنها كانت بغاية الجمال والروعة والاتقان تختلف بأحجامها بين عربة واخرى صغيرة ومتوسطة وكبيرة، كل منها كان بمثابة مسكن متحرك، وقد قاس روبروك المسافة التي تفصل بين عجلتي العربة الكبيرة بين الجانبين فكانت بحدود ستة امتار[١]. ويضيف ان لباتو ستة وعشرون زوجة لكل منها منزلا كبير الحجم خاصاً بها مبنياً على عربة وعندما تجتمع عربات الامراء والاعيان واسرهم والخدم تبدو مساكنهم كانها مدينة[٢] .

وماذكره روبروك يتوافق مع ماشاهده الرحالة العربي (ابن بطوطة) في هذه البلاد، فيذكر بانه في طريقه إلى معسكر أوزبك خان مغول القفجاق وبالقرب من موضع يقال له بش دغ الواقع على مسافة غير بعيدة من مدينة الماجر في شبه جزيرة القرم شاهد مدينة كاملة يصفها (بالعظيمة تسير باهلها من المغول المسلمون فيها المساجد والاسواق ودخان المطابخ صاعدا في الهواء، وهم يطبخون في رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم)[٣].

وعن وصف هذه المدن المتحركة يشير ابن بطوطة أيضا انه كان قاصدا واحدة منها، فلما وصل الموضع الذي حدد له موقعه وجد المدينة قد رحلت بأهلها من المغول، فسار خلفها حتى وجد قد نزلت على تلة، وكانت هذه المدن تسمى عندهم (الاردو) أي المعسكر[٤].

ويصف لنا (ابن بطوطة) مشاهد أخرى تتعلق هذه المرة بمساكن العائلة الحاكمة لمغول القفجاق والقائمة على عربات أيضا، فكان للخان أوزبك مساكن على عربات يتنقل بها في اسفاره ومعه مماليك وأرباب دولته، وتكون لكل زوجة من زوجاته مجموعة من

(1) Rubruk, Friar William: The Journey of willam of Rubruk to the Eastern part of the word, 1253-1255. "with tow account of the eariar Journey of Hohn of plano De Carpini, Rock hill, London,1927", p.95.

(2) Rubruk: The Journey of William,p,95.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ص٣٤٤. وينظر عن ذلك أيضا هو خام: تاريخ الصين، ص٢٢٣.

(٤) رحلة ابن بطوطة، ص٣٤٤.

العربات يسميها بالمحلة تشبيها لها بأحياء المدن، وان لهذا الخان ((في قعوده وسفره ترتيب عجيب بديع))[١].

وكانت العربات الكبيرة المعدة كمساكن للخان أو أفراد أسرته تجرها أعداد كبيرة من الحصن أو الجمال أو الثيران، أما العربات الصغيرة فيجرها حيوان واحد أو اثنين[٢]. ولنا صورة أخرى عن مواكب عربات كانت مخصصةً لزوجة احد أمراء الأسرة الحاكمة بهذه البلاد فيقول (ابن بطوطة) ((ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم، وهن أعلى شأنا من الرجال، فرأيت الخاتون زوجة الأمير (سلطيه) في عربة لها، وكلها مجللة بالملف الأزرق الطيب وطيقان البيت مفتوحة أبوابه، وبين يديها اربع جواد فاتنات الحسن بديعات اللباس، وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها، ولما قربت من منزل الأمير نزلت من العربة إلى الأرض، ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري يرفعن اذيالها ...))[٣].

أما الخاتون (طيطغلي)، وهي أحظى نساء الخان أوزبك فكان لها بيت مبنياً على شكل قبة فيها قضبان من ذهب وفضة او من اخشاب مرصعة تكون بمثابة روابط للخيمة، وتكون الخيل التي تجر العربة محللة بأثواب الحرير المذهب، وخادم العربة يدعى القشي والخاتون جالسة في عربتها ولها حاجبة، وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة في كل عربة الثلاث او الأربع من الجواري وتتبع هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها والمطابخ[٤].

والمغول يقيمون منازلهم إذ تكون أبوابها متجهة على الدوام إلى ناحية الجنوب تجنباً للرياح السيبرية الشديدة البرودة القادمة من الشمال، وهذا ينطبق على الخيام الثابتة أو المقامة على العربة[٥].

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص٣٤٥.

(2) Rubruk: The Journey of wiliam, p. 95.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ص٣٤٣.

(٤) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٣٤٦-٣٤٧، ٣٥٢-٣٥٣.

(٥) ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ص١٠٥ والهامش (٣)، ص١٠٦. فهمي، عبد السلام عبد العزيز: تاريخ الدولة المغولية في ايران، دار المعارف، ١٩٨١م، ص٢٢-٢٣.

أما نظام توزيع المساكن عندما تخيم القافلة في مكان ما فيكون زعيم القبيلة في وسط المخيم يميل إلى جهة الشمال وبيوت النساء إلى الناحية الشرقية أي إلى اليسار من رجالها وتقام منازل الرجال الغير متزوجين في الجهة الغربية أي إلى اليمين من منزل الزعيم(١).

ومنزل المغولي يلبي متطلبات حياته المعاشية البسيطة، فقد قسّمت الخيمة الى تقسيمات عدّة كل قسم يؤدي غرض يخدم فيه العائلة، فالأواني والأمتعة يكون مكانها في الجهة اليمنى وتحتوي على مكان لعمل النساء لأداء أغراض الطبخ ومتطلبات المنزل وتخصص الجهة اليسرى من الخيمة لجلوس الرجال، واذا ما حضر ضيوف فيكون مكانهم في العادة حول الموقد إكراماً لهم لكون هذا المكان الأكثر دفئاً في الخيمة، أما مكان النوم فيكون في العادة في نهاية المسكن حيث الفراش واللباس، وتستعمل الجدران لتعليق الاسلحة وبعض مستلزمات الطبخ، وتتبع خيمة المعيشة خيمة أو أكثر توضع فيها الحاجيات الاضافية من المؤن المخزنة وصناديق الفرش والاغطية(٢) وخيم الميسورين تضم الكراسي وتسمى (الصندليات)(٣).

واذا كانت مساكن المغول هي الخيام، فهذا لا يعني ان خاناتهم إذا ما استثنينا جنكيزخان المتوفي سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م) لم يقيموا لانفسهم في منغوليا منشاءات عمرانية، لكن ما أقاموه يجب ان لا يفهم بأنّها منشأة تظاهي، ما كان في الحواضر الإسلامية في بلاد ما وراء النهر أو الصين مثلا. وكان أوكتاي خان، وبناءً على مشورة مستشاريه الصينيين في ايجاد موضع من الارض تقام عليه منشاءات عمرانية تتخذ مكاناً لتكون عاصمة لامبراطوريته، فلم تكن للمغول من قبل عاصمة أو مكان ثابت تدار منه البلاد، فوقع الاختيار على موضع بين بحيرة ارغون وجبال قراقورم، لتقام عليه العاصمة، ولم يكن هذا الموضع إلا آثاراً لسور معسكر سابق للصينيين "الختا" ان اقاموه(٤) ومعروف عن

(1) Rubruk: The Journey of william, p. 94.

(٢) الصياد، محمد فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م، ص٣٣٤. فهمي، تاريخ الدولة المغولية في ايران، ص٢٣.

(٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٣٥٢.

(٤) الجويني: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، م١، ص٢١٨. ماركوبولو: رحلة ماركوبولو، ص٩٨.

الصينيين انهم كانوا يقومون بغارات استباقية على قبائل المغول –لاسيما– على مناطق نفوذ قبيلة التتار بهدف الحد من غارات هذه القبيلة على الحدود الشمالية الغربية من الصين[١]، وكان الأمر يتطلب منهم ان تكون لهم مواقع أشبه بالمعسكرات المحمية بأسوار ليستخدمونها عند الضرورة للتموين أو الرصد، فكان هذا المعسكر واحداً من المعسكرات القليلة الثابتة التي كانت لهم في منغوليا، وكان يطلق عليه تسمية معسكر باليغ، وهو عبارة عن جدار من آثار سور حجري مسجل عليه اسم بانيه ماوو باليغ، فسمّي المعسكر باسمه، فأمر (أوكتاي خان) ان يبني على مساحة الأرض التي يحيط بها هذا السور مدينة لتكون عاصمة لبلاده[٢]، وهنا يصف لنا مؤرخ المغول الجويني تفاصيل عن المنشاءات التي أقامها أوكتاي في هذا الموضع فيقول ((... ولكثرة المال وفيضان المواهب وغزارة الرغائب تم بناء المدينة بسرعة، وبنو مقابل المدينة في القسم المرتفع حقولاً وبساتين بواباتها ممر خاص للخان، وبوابة لأولاده وأقاربه، وثالثة للحريم، ورابعاً لدخول العامة وخروجهم بنى المعماريون الختائيون (الصينيون) قصر الملك في وسط المدينة أبواب تتصل ببوابات المدينة بحسب توزعها، وبنو عرشاً بثلاث أجنحة الأول للملك والثاني للملكة والثالث للسقاة والطباخين وعلى يمين القصر ويساره منازل الأخوة والأبناء والحرس، وزينو القصر والعرش والمنازل بنقوش وزخارف، ووضعوا في مساكن السقاة جراراً ضخمة لا يمكن حملها أو نقلها، كما بنو كل ما يلزم للالات الأخرى أو لمرابض الجمال والخيل، ومنازل مخصصة للمشرفين عليها))[٣].

كما أقام (أوكتاي خان) قصراً آخر يبعد عن المدينة بحدود ثلاثة أميال، كان قد أشرف على هندسته مهندسين مسلمين وابتناه بناة ختائيون سماه أوكتاي باسم "قرشي سوري" أي قصر الخان وصف بأنّه كان قصراً جميلاً شاهق مُحلى بأنواع النقوش والفرش الملونة ويتصدر القصر قاعة جميلة كانت قد أعدت لتكون مكاناً للعرش، وكانت القاعة مزينة،

(١) بارتولد، فاسيلي فلاديمير وفتش: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٠م. النجار: صراع الاسرة الملكية، ص١٦، ١٨–١٩.

(٢) الجويني: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، م١، ص٢١٨.

(٣) تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، م١، ص ٢١٨–٢١٩.

بأنواع نادرة من الأواني والخوابي الياقوتية الحجر والمرصعة فيها حوض وجداول فيها طيور سابحة[١].

وكان أوكتاي خان يقضي أوقات استجمامه في هذا القصر فكان له فيه مكان للشرب واللهو والعشرة وتحقيق النشوة. كما كان له قصر آخر لا يبعد كثيراً عن المدينة ابتناه على حافة تلة يمضي فيه أوقاته أثناء التجول والنزهة[٢].

أما قصر (سير اورد) فيشير الجويني بأنه مقام على سفح جبل مطل على المدينة ابتناه الختائيون للخان (أوكتاي) جدرانه خشبية عليها نقوش ونوافذه مذهبة وسقوفه مغطاة باللباد الأبيض[٣] لتؤدي وظيفة السقوف الكاذبة في وقتنا الحاضر.

وأخيراً فإنّ وصفنا لهذه المدينة التي أطلق عليها تسمية (قراقورم)[٤] نسبة لجبل قراقورم المقامة بالقرب منه، والقصور الأخرى لا يعني بان ظاهرة العمران كانت منتشرة في منغوليا، فالمصادر التي بين أيدينا ومنها لمؤرخي المغول كالجويني والهمذاني لا تشير أبداً إلى أية منشاءات أخرى أقيمت على عهد أوكتاي خان أو العهود التي أعقبته، وهذا يعني أن الشعب المغولي بقيّ محافظاً على النمط الذي كان قد ألفه من أجدادهم القدماء في الحل والترحال، ولازال افراد هذا الشعب –إلى وقتنا الحاضر– يعيش حياة البداوة يتنقلون في البراري، وأينما وجدوا الكلأ والماء يقيموا خيامهم، وقلة من هذا الشعب استوطن المدن، وهي على العموم قليلة العدد لا يزيد عددها على عدد أصابع اليد أشهرها العاصمة (اولان باتور)، وهذه المدن حديثة النشأة كانت في البداية أماكن لإقامة العمال الذين استخدمهم السوفيت لاستخراج الفحم ثم ما لبثت بمرور الوقت ان استقطبت هذه الأماكن إعداد من المغول ليقيموا فيها طلباً للعمل لتتحول فيما بعد إلى مدن صغيرة بعد قيام جمهورية منغوليا الشعبية في منتصف القرن العشرين.

أما مدينة (قراقورم) فقد اندثرت بعد انهيار امبراطورية المغول سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م بعد ان هجرها سكانها وعادوا إلى البداوة، ولم يبق من المدينة إلا آثار مندرسة، ولعل سبب

(١) الجويني: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، م١، ص٢١٩–٢٢٠. الهمذاني: جامع التواريخ، ص٦٠.

(٢) الجويني: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، م١، ص٢٢٠.

(٣) الجويني: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، م١، ص٢٢٠–٢٢١.

(٤) الجويني: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، م١، ص٢١٨. الهمذاني: جامع التواريخ، ص٦٠.

اندثارها يرجع بتقديري إلى تساقط الأسباب التي كانت سبباً لقيامها، فمعلوم ان سبب قيامها جاء لتكون عاصمة ولهذا توفرت لها كل ما كانت تحتاج إليها من مؤن من الخارج[١]. ولكن بعد انهيار الامبراطورية غابت عنها ما كانت بحاجة إليه من تموين فاندثرت، ولتوضيح ذلك نقول أن موقع العاصمة قراقورم لا يعطي للمدينة خاصية التواصل مع حواضر في آسيا الوسطى، فهي لا تقع مثلا على طريق الحرير الذي يربط المدن التجارية بعضها ببعض، كما إن المكان الذي انشئت عليه لا تحيط به مساحات سهلية قادرة على الإنتاج الزراعي لإعالة سكانها، فقراقورم على زمن خاناتها العظام كانت مواردها الاقتصادية من مآكل وشرب تجلب لسكانها من البلدان المجاورة، ولذلك كان سكانها يتعرضون للمجاعة عندما تنقطع عنها هذه الموارد، كما حدث سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م عندما أمر قوبلاي الذي كان حاكماً على ولاية الصين بايقاف تجهيزها بالمؤن من الصين[٢]، أثّر الصراع الذي نشب بينه وبين أخيه (اريق بوقا) الذي أعلن نفسه خاناً على الامبراطورية في أعقاب وفاة منكو خان سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، وقوبلاي قد رفض الاعتراف به وحاربه طالبا الخانية لنفسه، وكانت نهاية الصراع تنازل اريق بوقا عن الخانية لمصلحة قوبلاي بعد أن تخلّى سكان قراقورم عنه لما أصابهم من جوع وموت بسبب إنعدام المؤن نتيجة الحصار، وما حدث بعد ذلك أن اتخذ قوبلاي بكين عاصمة لإمبراطورية المغول بدلاً من قراقورم[٣] سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م، ومنذ هذا التاريخ أصاب قراقورم التدهور لكنها بقيت قائمة لبقاء عدد من أفراد الأسرة الجنكيزخانية ممن رفض الانتقال إلى بكين، فقد ورد ذكرها على عهد الخان تيمور (٦٩٤– ٧٠٨هـ/ ١٢٩٥–

(١) يذكر الهمذاني ان كل ما كانت تحتاجه قراقورم من تموين كان يجلب لها من البلدان المجاورة فكان يورد اليها كل يوم خمسمائة عربة كبيرة مملؤة بالاطعمة والاشربة توضع في المخازن ليقتات منها سكان المدينة. جامع التواريخ، ص٦٠. ويذكر المؤرخ الروسي بارتولد بان المصدر الأساسي لتموين قراقورم كان يجلب من الصين. تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص٦٩٩.

(٢) الهمذاني: جامع التواريخ، ص٢٥٠.

(٣) لغرض الاطلاع على تفاصيل هذا الصراع ينظر الهمذاني: جامع التواريخ، ص٢٤٢–٢٥٢، ٢٦٢. بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص٦٩٩– ٧٠٢. فامبري: تاريخ بخاري، ص١٩٠–١٩١.

١٣٠٨م) الذي أرسل أخاه الأكبر (كملا) مع عسكر وأموال وفيرة إلى قراقورم ليحمي الأسر الجنكيزخانية فيها من غارات الأمير (دوا) حاكم بلاد ما وراء النهر الذي تمرد على سلطة تيمورخان وقام بغارة على قراقورم(١).

ولم تذكر المصادر التاريخية بعد عهد تيمورخان أي ذكر لها باستثناء ما جاء على لسان (ابن بطوطة) عندما أشار في معرض حديثه عن خان مغول الجغتاي في بلاد ما وراء النهر السلطان خليل بان على عهد هذا الخان توحدت بلاد ما وراء النهر مع التركستان عندما تمكن هذا الخان من الاستيلاء على قراقورم وابقى عليها حامية عسكرية صغيرة وعين عليها حاكماً يتبعه وذلك بحدود الفترة المحصورة بين سنة (٧٤٣- ٧٤٧هـ/ ١٣٤٢- ١٣٤٦م) تاريخ حكم هذا الخان(٢).

أما ما يقال عن وجود مدن أقامها خانات المغول غير قوارقوم فهذا صحيح ولكن هذه المدن جميعها كانت خارج ارض منغوليا في البلاد التي احتلوها وأقاموا لهم فيها عواصم لولاياتهم أو دولهم فمثلا ابتنى باتوخان سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٢م مدينة السراي الواقعة على المجرى الأدنى لنهر الفولكا لتكون عاصمة لخانية مغول القفجاق(٣)، وأبتنى هولاكو ابل خان دولة المغول إلا يلخانية في إيران والعراق لنفسه مدينة مراغة في إقليم اذربيجان لتكون عاصمة لدولته سنة ٧٥٧هـ/ ١٢٥٩م(٤)، وقوبلاي كان قد اتخذ من بكين عاصمة لإمبراطوريته، لتشهد هذه المدينة على عهده ازدهاراً قل مثيله(٥) ولعل من شواهد آثاره حتى وقتنا الحاضر المدينة الإمبراطورية التي يؤمها عشرات آلاف من السياح سنوياً، وفي

(١) الهمذاني: جامع التواريخ، ص٣١٤، ٣٢٠.

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٣٨٩-٣٩٠.

(٣) الرمزي، م. م: تلفيق الأخبار وتلقيح الاثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص٣٧٦. فشر، هـ، م: تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة وآخرون، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م، ص٤١٢.

(4) Dmytryshyn, Basil: History of the Russia, New Jersey, 1977, p. 116.

(٥) هوخام: تاريخ الصين، ص٢٤١.

بلاد ما وراء النهر أقام الخان الجغتائي كيبك عاصمة له فيها سماها "قرشي" وهي تقع بالقرب من مدينة نسف (تحشب) القديمة الواقعة بين نهر سيحون وسمرقند[١].

**ثالثاً: مأكل المغول ومشربهم**

تشكل البيئة الجغرافية في أي مجتمع – على الغالب – عاملاً مهما في نوع الطعام لذلك المجتمع، وبيئة منغوليا شحيحة في مواردها الغذائية، وقد نقل لنا (هارولد لامب) عن السفير البابوي كاربيني الذي زار هذه البلاد فيقول عنها ((في كل حدب وصوب واحات رملية وليس في واحد بالمائة نبت، والأنهار نادرة والبلاد خالية من الأشجار، ولكنها غنية في مراعيها والجو لا اعتدال فيه مطلقاً ففي الشتاء تهب العواصف السيبرية الشديدة البرودة وترعد السماء وتبرق فتقتل الكثير من الناس وتتساقط الثلوج والبرد، وكثيراً ما يقع الفرسان من ظهور جيادهم بسبب العواصف، وفي عاصفة شديدة اضطررنا إلى الانبطاح أرضاً لحماية أنفسنا من قوة الريح والبرد، وفي الصيف يكون الحر المحرق هو السائد على هذه البيئة))[٢].

وأمام هكذا بيئة فما علينا إلا أن نتصور مقدار العوز الغذائي الذي كان عليه المغول في هذه البلاد، ولهذا لم يكن أمام المغولي إذا ما أراد ان يكون على قيد الحياة إلا أن يطوع نفسه غذائياً لمواجهة بيئته، فالمغولي استغل كل شيء يمكن أكله، والمؤرخ المشهور ابن الاثير لم يكن يتصور أكثر ممّا قال عنهم عندما نعتهم بانهم ((لا يحرمون شيئاً فأنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها))[٣]، وله الحق في ذلك لأنه لم تكن له المعلومات الكافية عن بيئتهم بحكم ان منغوليا لم تكن قد حظيت على اهتمام مؤرخينا، الا بعد ان بدأت طلائع جيوشهم تتعرض للمشرق الإسلامي وسقوط الدولة الخوارزمية

(١) لسترنيج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة بغداد، ١٩٥٤م، ص٥١٣-٥١٤. بارتولد: تاريخ الترك، ص٢٠٦-٢٠٧.

(٢) لامب، هارولد: جنكيزخان امبراطور الناس كلهم، ترجمة بهاء الدين نوري، مطبعة السكك، بغداد، ص٦.

(٣) ابن الاثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد: الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، ج٩، ص٣٣٠.

ومقتل اخر سلاطينها جلال الدين منكبرتي سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) وهو التاريخ نفسه لوفاة المؤرخ ابن الاثير.

ولكن مشاهدات من زار بيئتهم تعطي لنا صورة صادقة عن واقعهم وتبرر لماذا كانوا قساة جفاة حتى على أبناء جلدتهم فالسفير البابوي كاربيني قال عنهم بأنهم كانوا لا يتوانون عن آكل لحوم البشر عندما لا يجدون شيئاً يأكلونه، ويذهب إلى أكثر من ذلك في القول بأنهم يأكلون ما يخرج من أنثى الفرس من مخلفات عند الولادة أي المشيمة ولا يستثنون اكل لحوم الحيوانات الميتة وحتى القمل كان ضمن مأكولاتهم(١).

أما المؤرخ المملوكي (ابن فضل الله العمري) المتوفي سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م فإنّ معلوماته عنهم جاءت صادقة بعد أن أصبحت المعلومات عنهم متاحة بحكم الاحتكاك والسفارات والتجارة التي كانت قائمة بين دولة المماليك في مصر وبلاد الشام مع امبراطورية المغول سواء أكان مع مغول القفجاق، أو الايلخانيين، أو مغول بلاد ما وراء النهر أو باقي الممالك المغولية الأخرى فقال عن بيئتهم منغولياً ما نصه ((وهم في جهد من قشف العيش، لأنهم ليسوا أهل حاضرة لهم زرع، وشدة البرد تهلك مواشيهم، وهم همج رعاع... وهم لشدة ما بهم من سوء الحال اذا وجد أحدهم لحما سلقه ولم ينضجه، وشرب مرقة وترك اللحم ليأكله مرة أخرى، ثم يجمع العظام ويعاود سلقه مرة أخرى ليشرب مرقه وقس على هذا بقيت عيشهم فهم لا يعرفون في المأكل ما يعاف مما لا يعاف))(٢).

ومعلومات ابن فضل الله العمري هذه كان قد رواها له احد تجار المسلمين الذي زار هذه البلاد واسمه عبد الله الحصني وأكدها له تاجر اخر اسمه الصدر زين الدين عمر بن مسافر عندما سأله العمري عن مدى مصداقيتها فقال له ان كل ما قاله عبد الله الحصني صحيح(٣).

ويؤكد العديد من المؤرخين بأنهم كانوا يكثرون من صيد حيوانات تعرف بفأر فرعون وهي نوع من أنواع الجرذان الضخم الشبيه بالأرنب تنتشر بوفرة عظيمة في مناطق السهوب

(1) Carpini, John of Plano: History of the Mongd, Ed, C, Dawson, Entitle. "The Mongol Mission, London, and New York, 1955, p.16.

(٢) مسالك الابصار، ج٣، ص١٤٦.

(٣) مسالك الابصار، ج٣، ص١٤٦.

كانوا يخرجون جماعات لصيدها[١]، ويعد المغول لحمه من الآكلات المفضلة لديهم على الرغم من مخاطر الاصابة بالطاعون كونه ناقل للمرض، كما كانوا يصطادون حيوانا آخر شبيه بفأر فرعون يطلق عليه اسم (المرموط) له لون ضارب بالسمرة وله أقدام كأقدام الغرير ينتشر في التلال القريبة من نهر (سلنجا)[٢].

وتخف معانات المغول في فصل الربيع عن غيرها من الفصول إذ ينتشر العشب، فتسمن دوابهم وتجود بلبنها ويكثر الصيد والقنص، ويأتي قناصو القبيلة أو العشيرة بظبي أو بدب فيطهى ويقدم على سفرة أولا إلى الرجال الأقوياء البنية فيلتهمون الوجبة الأولى منه ثم ينسحبوا بعد الشبع ليحل محلهم كبار السن من الرجال ومعهم النساء والأطفال فعليهم ان يتطاحنوا على فتات اللحم، ولا يبقى إلا النزر اليسير مع ما تبقى من العظام ليرمى للكلاب[٣].

وفي الشتاء عندما يهزل القطيع فتسوء حالة الأطفال ولا يجدون إلا الحليب إن توافر، وإلا سيكون البديل لجميع أفراد الأسرة الدخن المغلي بالماء لإلهاء البطون الخاوية[٤].

والأطفال دائماً هم أول ضحايا الجوع، ولأنّ الكبار هم الأقدر على ما يسد رمقهم من الصغار سواء عن طريق الصيد أو الإغارة أو السرقة من مؤن الآخرين.

والمغولي يجد انه من المعيب عليه ان يستجدي من الآخرين ويفضل الموت على أن لا يكون متسولاً، فالتسول يثير الإحتقار والازدراء لمن يقوم به في المجتمع المغولي[٥]، وأحياناً يجود بعض الميسورين ممن لهم قطعان ماشية فيقوم الواحد منهم بإطعام عدد كبير من الجياع بادرة كرم منه، كما شاهد ذلك (وليم روبروك) في رحلته إلى منغوليا إذ

---

(١) الجويني: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، م١، ص ٦٠. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٣٥. ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ص١٠٥. ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل: البداية والنهاية، مطبعة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م، ج١٣، ص٨٧. لامب، هارولد: جنكيزخان وجحافل المغول، ترجمة متري امين، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص١٠.

(٢) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ص١٠٧ الهامش (٦).

(٣) لامب: جنكيزخان امبراطور الناس كلهم، ص٧.

(٤) لامب: جنكيزخان امبراطور الناس كلهم، ص٨.

(٥) لامب: جنكيزخان وجحافل المغول، ص٢٣.

تعرف على الكثير من طبائعهم وعاداتهم وطريقة عيشهم ومأكلهم وكان من ضمن ما شاهده الوليمة التي قدمها رجل مغولي ميسور للجياع من أبناء عشيرته عندما قدم شاة مطبوخة لأكثر من مائة من الجياع، فقام بتقطيعها ووزع اللحم المطبوخ في إناء قدمه للحاضرين فبدأ أولاً بزعيم العشيرة الذي فضله على الآخرين بحكم مكانته الاجتماعية بأن أعطاه كمية أرضته ووزع الباقي على الآخرين فكان نصيب كل شخص لقمة أو لقمتين وحتى العظام كانوا يقرضونها ويستخرجون المخ منها(١).

ويتفق المبعوث البابوي كاربيني الذي زار هذه البلاد أيضاً مع ما قاله الآخرين في إنّ مجتمع المغول زاهد في الأكل وزهده جاء نتيجة ان بيئتهم غير معطاء فهم لا يملكون القمح أو الحبوب الأخرى لصناعة الخبز ولا يأكلون الفاكهة لعدم توافرها، فلم يكن لهم إلا اللحم ليأكلوه، ومع ذلك فلا يأكلون منه إلا كميات قليلة، لان الإكثار منه سيكون على حساب قطعانهم وهي بالأساس قليلة(٢)، ويؤكد هذه الحقيقة (ماركوبولو) أيضاً فيشير إلى أن المغول يقتصرون في طعامهم على اللحم وهو قليل في موسم الشتاء ليعوضوا عن هذه القلة بالقنص في موسم الربيع كما أشرنا إلى ذلك، بالإضافة إلى أنهم ينتجون الأجبان من حليب حيواناتهم ثم يجففونه ليستخدموه عند الحاجة(٣).

وشظف العيش هذا لا ينطبق على الأسرة (الجنكيزخانية) الحاكمة أو القبائل المتنفذة على عهد جنكيزخان وخلفائه، إذ كانت هذه الأسر تعيش حياة مترفة وتصلها عربات المأكولات والمشروبات المختلفة من البلدان المجاورة(٤)، أما في المناسبات كأن تكون احتفالية تنصيب خان جديد للامبراطورية فكان يقدم للمشاركين في الاحتفالية الطعام اللذيذ الذي يجيد طبخه طباخون متخصصون بهكذا مناسبات معظمهم صينيون أو من بلاد إسلامية يجيدون فن الطبخ الملكي(٥).

(1) Rubruk: The Journey of william, p.98.
(2) Carpini: History of the Mongl, p. 16- 17.
(٣) رحلات ماركوبولو، ص١٠٥، ١١٠.
(٤) الهمذاني: جامع التواريخ، ص٢٥٠.
(٥) الجويني: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، م١، ص١٧٧، ١٧٩- ١٨٠.

وعن وليمة حضرها (ابن بطوطة) لأحد أمراء المغول في بلاد مغول القفجاق فيشير بأنّ الطعام كان مكوناً من لحوم الخيل، والغنم قدم من قبل الباروجي، والباروجي هو المشرف على الطعام فيصفه بأنّ عليه ثياب حرير، وقد ربط على كتفه فوطة وعلى جسده واقية حرير "صدرية" وفي حزامه حزمة سكاكين في اغمادها، ويكون في العادة لكل أمير في الدولة باروجي يقدم طعامه لرجاله، ويقدم مع الطعام وعاء صغير مصنوع من الذهب أو الفضة فيه ملح محلول بالماء يستعمله من يريد أن يضيف شيء قليل من الملح لطعامه(١).

أما عن مشروبات المغول فيحتل حليب الفرس الشراب المفضل لديهم، ولا تخلو عائلة مغولية من هذا النوع من الشراب، فهو مثار اهتمام كل مغولي ولهذا تحرص دائماً كل عائلة مغولية أن تكون لها دائماً مجموعة من الخيل لتديم منها حاجاتها من الحليب الذي يستخلص منه شراب يروق لكل مغولي ان يتناوله يسمى بـ(القميز)(٢) والقميز كما يذكر عنه وليم روبروك بأنه يخلق حالة من النشوه بتأثير من خاصية الحموضة فيه يجعل المرء في حالة روحية وعقلية عجيبة فضلاً عن الطاقة التي يمنحها للمرء الذي يشربه(٣) وقد امتدح ماركوبولو شربه(٤) لأنه لا يتعارض مع قيمه على العكس من الرحالة العربي ابن بطوطة الذي قدم له شراب القميز في قدح خشب، ولم يكن من قبل قد ذاقه، فتذوقه فلم يستسغ طعمه ودفعه لاحد أصحابه، ويبدو انه علم بانه شراب مسكر لذلك قال عنه انه شراب لاخير فيه(٥).

(١) رحلة ابن بطوطة، ص٣٥٣.

(٢) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ص١٠٥ ويسميه "كيمورس" ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٣٤٨، ٣٥٤. Rubruk: The Journey of William, p. 99.

(3) Rubruk: The Journey of William, p. 98- 99.

(٤) رحلات ماركوبولو، ص١٠٥.

(٥) رحلة ابن بطوطة، ص٣٤٨.

و(القميز) يكون في العادة طعمه حامض ولونه أبيض ونكهته نكهة النبيذ[١] يحمل في القرب على العربات[٢] وعند مصاحبة (ابن بطوطة) لموكب خان مغول القفجاق أوزبك قال ما نصه ((ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القميز فأمر السلطان "الخان" بتفريقها على الناس، فأتوا الي بعربة منها فأعطيتها لجيراني من الاتراك))[٣].

و(القميز) المصنوع للأمراء وسادة القوم والمسمّى بـ(القميز الاسود) هو غير القميز العادي فهو يعالج بطريقة خاصة ويصفى لمرات عدة، وبعد ان تفصل عنه مادة يطلق عليها بالمادة البيضاء ليبقى السائل الصافي الذي يقدم للخاصة ويصفه وليم روبرك بأنه أحسن أنواع الشراب ومنشط عالي القدرة[٤].

ومن المشروبات الأخرى التي ذكرها (ابن بطوطة) نبيذ العسل وألبان الغنم والبقر وهذه الالبان كان المغول يرفعونها في القرب ويخلطونها بالدوقي[٥] المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون[٦]. كما كانوا يصنعون شراب من حبوب الدخن وبكميات أقل من الرز أو القمح إن توفّر لهم حبوب هذه الأنواع من البلدان المجاورة.

والمغولي لا يتوانى عن شرب الدم عندما ينفذ ما يملكه من شراب فأنه يعمد إلى حيواناته فيثقب بآلة حادة ثقباً في شريان فرسه مثلاً، فيمتص من الدم ما يسد جوعه ثم يفرك مكان الجرح حتى يوقف تدفق الدم، وهكذا يكون قادراً على العيش[٧].

وأخيراً لابّد من وصف المناسبات التي كان الشراب المسكر يحتل فيها الأولوية أكثر من الطعام، ومن ذلك الوصف الذي جاء به الجويني عن الساقيات اللائي كلفن بتوزيع

---

(١) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ص١٠٥.

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٣٣١.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ص٣٢٩.

(4) The Journey of William, p. 99.

(٥) الدوقي: صنف من الحبوب شبيه بالشعير. ينظر ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٣٣٨ الهامش (٥).

(٦) رحلة ابن بطوطة، ص ٣٥٣.

(٧) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ص١١٠.

الشراب على الحاضرين في احتفالية تنصيب منكو خاناً للمغول فيقول ((والساقيات الحوريات الصبيحات اللائي سطرت سورة الحسن على صفحة وجوهن يطفن بالكاسات والشراب بأباريق وأكواب، فخلت ساحة الأفئدة من أشواك الحزن والوحشة، ترقص الزهرة في كأسهن كالحباب، واناء الغزل يضممن الكأس في الكلف"[١].

وهذا الوصف لا يختلف عن ما جاء به مؤرخ المغول الهمذاني عند حديثه عن هذه الاحتفالية وما قدم فيها من شراب ولهو وطرب، وكان (القميز) يتقدم باقي أنواع الشراب المقدم[٢].

وبهذا الوصف نختتم بحثنا آملين إن شاء الله ان نكون قد أعطينا صورة واضحة عن هذا الموضوع، ومن الله التوفيق.

(١) تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، م١، ص٢٠٦-٢٠٧.

(٢) جامع التواريخ، ص٢٠٤.

# *The Mongol Tribal Society: Its Habitations, Foods and Drink*

**Dr. Raghad Abdul-kareem Al-Najaar**

## Abstract

The present study sheds light on the Mongol tribal society with regard to its way of living which is based on wandering around the severe Mongolian steppe. This severe environment imposed upon the Mongols leading a severe life due to the shortage of economical resources which are mainly restricted to grazing fields. This drove the Mongols to depend on cattle and horses in the first place to meet the necessities of life. This is reflected in turn on their habitations, foods and drink as we shall explain later on in the course of this study.